مظاهر التبادل الاقتصادي بين الجزائر والساحل الإفريقي خلال ق 19 من خلال كتابي "مستقبل فرنسا في إفريقيا لـ بول سولييه" وطرق الصحراء: رحلة في المناطق الداخلية في الصحراء الكبرى الإفريقية لجيمس ريشارد صون"

The manifestations of economic exchange between Algeria and the African coast during the 19th century AD through my book "The Future of France in Africa by Paul Soulier" and Desert Roads: A Journey in the Interior of the African Sahara by James Richard Sohn

ليلى بوجلال♦

جامعة حسيبة بن بوعلي بـ الشلف leila.histoir25@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/07/17 تاريخ القبول: 2022/12/08 تاريخ النشر: 2023/01/31

الملخص: يهدف هذا البحث إلى تسليط الضوء على علاقات الجزائر مع دول الساحل الإفريقي في المجال الإقتصادي تحديدا التجاري منها، وهذا بحكم موقعها الاستراتيجي الهام الذي مكنها على مر الفترات التاريخية من إقامة علاقات جد وطيدة معها هذا من جهة، وتعتبر الجزائر بوابة إفريقيا ونقطة انطلاق وعبور من وإلى بلدان الساحل الإفريقي من جهة أخرى. هذا ولم تمنع الظروف السياسية والعسكرية التي كانت تعيشها الجزائر وبلدان الساحل الإفريقي آنذاك من تغلغل وسيطرة واضحة للنفوذ الفرنسي وحتى الانجليزي - بالنسبة لدول الساحل الإفريقي-، من ربط الجزائر مع هاته الدول الإفريقية لا سيما صحراء الجزائر. وقد اختلفت مظاهر هذا التبادل من حضاري ليتعداها إلى الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي وحتى الثقافي، ركزت في دراستي على الجانب الاقتصادي بحكم أن أغلب المصادر الأجنبية تحدثت عنه، لاسيما كتاب بول سولييه وكتاب ريتشارد صون. وخلص البحث في النهاية على تلك النقاط التي أوردها المؤلفان في كتابهما عن الحياة الإجتماعية والإقتصادية، وتركيزهما على مسار عمليات التبادل التجاري

♦ المؤلف المرسل

وأهم الطرق الصحراوية التي كانت تمر من خلالها القوافل التجارية، في عملية نقل واستيراد البضائع.

الكلمات المفتاحية: صحراء الجزائر؛ الساحل الإفريقي؛ الاستعمار؛ الطرق الصحراوية؛ التبادل.

Abstract: This research aims to shed light on Algeria's relations with the African Sahel countries in the economic field, specifically commercial ones, and this is due to its important strategic location, which enabled it, over the historical periods, to establish very close relations with it on the one hand, and Algeria is considered the gateway to Africa and a starting point and transit to and from African countries on the other hand. This did not prevent the political and military conditions that Algeria and the countries of the African coast were experiencing at that time from the penetration and clear control of French and even English influence - for the countries of the African Sahel - from linking Algeria with these African countries, especially the desert of Algeria. The manifestations of this exchange varied from civilized to the political, economic, social and even cultural aspect. The research concluded in the end on those points mentioned by the authors in their book on social and economic life, and their focus on the course of trade exchange operations and the most important desert roads through which commercial convoys passed through, in the process of transporting and importing goods.
Keywords: Algeria desert; African coast; colonialism; desert roads; exchange.

مقدمة:

لا يخفى على أحد من الباحثين في حقل التاريخ أهمية المصادر التاريخية التي إهتمت أساسا بجغرافية وطبيعة البلدان، والتي تعتبر مرجعا لأهم المعارف عن السكان وتعدادهم وعاداتهم وطبائعهم، علاقاتهم وتجارتهم وحروبهم. هاته المصادر فسرت على مر التاريخ تاريخ المنطقة بكل تفاصيلها ولم تهمل أي جانب من الجوانب لا سيما الجانب الاقتصادي منها، وخلال بحثنا هذا سنركز بطبيعة الحال على المصادر الأجنبية التي اهتم أصحابها أثناء رحلاتهم المختلفة لبلدان شمال إفريقيا وإفريقيا، وتحديدا إلى الجزائر ودول الساحل الإفريقي في تسجيل كل ما يرونه ويعيشونه في مذكراتهم التي كتبوها، ليس

بغرض الشهرة والمال حسب ما يعتقد الكثيرون، وإنما هدفهم كان لا يتعدى أحيانا الهواية وتسجيل ما يحصل معهم أثناء سفرهم ورحلاتهم، وأحيانا أخرى استكشاف طرق القوافل التجارية بين منطقة ومنطقة خاصة مناطق الصحراء. ومن هنا تبادر إلى ذهننا طرح التساؤلات التالية: ما مظاهر التبادل الاقتصادي بين الجزائر وبلدان الساحل الإفريقي من خلال المصادر الأجنبية؟ وكيف تناولت المصادر الأجنبية هذا التبادل؟ وما هي أهم المصادر التي تحدثت عن هذا التبادل الإقتصادي بين الجزائر وبلدان الساحل الإفريقي؟

سنركز في هذه الدراسة على فترة القرن 19 م أي فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، علما أنه من بين أسباب احتلال فرنسا للجزائر نجد السبب الاقتصادي في صدارة دوافع الاحتلال. ومن حسن حظنا أن المصادر في هذه الفترة، وفي هذا النوع من المواضيع تحديدا متوفرة وبشكل كبير وتتحدث عن موضوع بحثنا وبإسهاب. ومن بين هاته المصادر كتاب مستقبل فرنسا في إفريقيا لـ بول سولييه (Paul Soleillet, Avenir de la France en Afrique) الذي نشر سنة 1876، أيضا مصدر آخر للمستكشف البريطاني جيمس ريشارد صون الذي نشر سنة 1850 ترجم للغة الفرنسية عنونه بـ طرق الصحراء: رحلة في المناطق الداخلية من الصحراء الكبرى الإفريقية(M .James Richardson, Routes du Sahara: itinéraires dans l'intérieur du grand désert d'Afrique). سنعالج موضوعنا من خلال المحاور التالية:

1__ المحور الأول: المصادر الأجنبية في دراسة الحياة الإقتصادية للصحراء الجزائرية ودول الساحل الإفريقي.

2__ المحور الثاني: مظاهر الاهتمام الأوروبي بالصحراء الجزائرية والساحل الإفريقي.

3_المحور الثالث: الإستعمار سبيل لبسط النفوذ الإقتصادي بين الصحراء الجزائرية والساحل الإفريقي.

4__ المحور الرابع: دور الطرق التجارية في عملية التبادل الإقتصادي بين الجزائر ودول الساحل الإفريقي.

1. المصادر الأجنبية في دراسة الحياة الإقتصادية للصحراء الجزائرية ودول الساحل الإفريقي:

كان التنافس على أشده بين فرنسا وإنجلترا على قارة إفريقيا عامة والجزائر خاصة، فقد شهد القرن 19م توالي حملات التوسع والاحتلال في كل من الجزائر ودول الساحل

الإفريقي من قبل الفرنسيين والانجليز وحتى الألمان والايطاليين فيما بعد، هذه التوسعات سمحت للمستكشفين والرحالة والكتاب والمغامرين، ورجال الدين والتجار والعسكريين والقناصل والدبلوماسيين الأجانب في إعداد تقارير ومذكرات مفصلة عن رحلاتهم، تحدثوا فيها عن جغرافية المنطقة والمناخ، وعن السكان وعاداتهم وتقاليدهم، وعن حياتهم الاقتصادية وعلاقاتهم السياسية.

1. 1- النموذج الأول: كتب بول سوليه[1] في مقدمة كتابه "مستقبل فرنسا في إفريقيا الوسطى" عن أهمية طرق الصحراء التي إكتشفها الرحالة من الفرنسيين أو غيرهم التي تربط الصحراء بالبحر المتوسط، هذه الطرق التي سمحت بربط الصحراء الوسطى والسودان الغربي، وهو بلا شك الطريق من الجزائر إلى عين صالح، هذا ويتحدث عن مخطط رحلته من الجزائر العاصمة إلى غاية عين صالح (تمنغاست) التي بدأت من 1872 إلى 1874، ولم يغفل عن ذكر الواحات التي شاهدها في طريقه مثل واحات الأغواط والشعامبة[2] وبني مزاب وقصور جبل عمور وحتى واحات عين صالح، هاته الأخيرة التي كانت هدفه من تلك الرحلة، أين اعتبرها مشروع استكشافي تجاري من الجزائر إلى عين صالح[3].

1__ هو جون جوزيف ماري ميشال بول سولييه ولد بـ "نيم" بفرنسا في 29 أفريل 1842، منذ طفولته كانت له رغبة كبيرة في حب السفر والترحال والمغامرات إلى الأماكن المجهولة خاصة إفريقيا، دخل الجيش الفرنسي سنة 1870 اختصاص مشاة، توفي بأدن 10 سبتمبر 1888. قام بثلاث رحلات، الأولى زار فيها الجزائر وتونس 1866__1867، والثانية 1872__1874 وهي أشهر رحلاته كلفته فيها المؤسسة العسكرية والغرفة التجارية باستكشاف الطرق التجارية من الجزائر إلى عين صالح(تمنراست)، في حين كانت الرحلة الثالثة عام 1878 انطلق من باريس باتجاه سيجو في إفريقيا الوسطى ويبقى دائما الهدف من رحلته هو معرفة الطرق التجارية الموجودة في الناحية الغربية للنيجر، وكذا إعداد تقرير مفصل عن مملكة سيجو حول الإنتاج والاستهلاك مع السودان الشرقي. ينظر: عبد القادر مرجاني، الصحراء الجزائرية من خلال الكتابات الأوروبية خلال القرن 19م بول صولييه أنموذجا"، **مجلة الدراسات التاريخية**، جامعة الجزائر2، الجزائر، ع 22، 2018، ص ص 148__149.

2__ مفردها شعامبي وهم يشكلون قبيلة كبيرة يشغلون المنطقة الصحراوية الكبيرة من ورقلة والقليعة ومتليلي، يتفرعون إلى أربع أقسام: قسمين هما شعامبة المخادمة وشعامبة الرياح وهم من جودونب ورقلة، وشعامبة موهادي شرق القليعة (في غرداية) والرابعة شعامبة برازقا بمتليلي. ينظر: نفسه، ص 155.

3_ Paul Soleillet, exploration du Sahara : avenir de la France en Afrique, Challamel ainé libraire éditeur, Paris, 1876, pp. 4_7

1. 2- النموذج الثاني: وبنفس نهج وطريقة بول سولييه ركز جيمس ريشارد صون في تقريره هذا عن رحلته إلى الصحراء في ذكر أهم ممرات القوافل التجارية التي تمر عبرها البضائع، سواء من غدامس وطرابلس إلى صحراء الجزائر، مرورا بدول الساحل الإفريقي تشاد وطومبوكتو والنيجر ونيجيريا، وصولا إلى السنغال، أو حتى تلك الطرق التي تسلكها قوافل الحجاج، ركز كذلك في كتابه على الطرق الفرعية ذات المسافات الطويلة لتجنب قطاع الطرق، كما تحدث عن الواحات ومصادر المياه والمدن والقصور والأسواق التي يصادفها في رحلته[4].

2. مظاهر الإهتمام الأوروبي بالصحراء الجزائرية والساحل الإفريقي:

ظلت الصحراء الإفريقية الكبرى بالنسبة للأوروبيين عالما مجهولا قرونا طويلة، ولم تكن لهم إلا معلومات محدودة عنها، وقد بدأ إهتمامهم الفعلي بالصحراء مع تلك الكشوفات البحرية خلال ق 15م وما بعده، وقد كانت المعلومات التي سجلها الجغرافيون اليونان والرومان وكذا الجغرافيون والرحالة والتجار العرب، هي المعلومات الوحيدة المتوفرة للباحثين عن الصحراء الكبرى في أواخر القرن 18 م، وظلت طبيعة الصحراء سرا مجهولا يتحدى علماء الجغرافيا. غير أنه في أواخر القرن 18 ومطلع ق 19م إشتد التنافس الاستعماري بين الفرنسيين والانجليز والألمان حول القارة الإفريقية، وهرع المغامرون الإنجليز والألمان يفدون إلى إفريقيا وكان من أسباب هذا التنافس ما يلي:

_ فتح مجالات للصناعة والتجارة الأوروبية.

_ إيجاد حل لفائض السكان على الأمد البعيد.

_ القيام بدراسات علمية متنوعة طبيعية بشرية وحتى اقتصادية[5].

مع توسع التجارة وإزدهارها بشكل ملفت للإنتباه بالصحراء الإفريقية، عزمت الدول الأوروبية على غزو الصحراء واستعمارها، لذا اهتم الأوروبيون أشد الإهتمام بدراسة ما كتبه الجغرافيون وما تركه الرحالة الغرب السابقون. ومن خلال ذلك تعرفوا على الطرق

4_ M. James Richard son, routes du Sahara : l'itinéraire dans l'intérieur du grand Désert d'Afrique ; traduit par : M. Albert Montémont, imprimerie de L. Martinet, paris, 1850, p 3.

5_ طاهر موساوي، استكشاف الصحراء الإفريقية والجزائرية قبل القرن 19 م، **مجلة دراسات إنسانية وإجتماعية**، جامعة وهران 1، الجزائر، ع 5، 2015، ص ص، 203_205.

الصحراوية المختلفة التي كانت تسلكها القوافل التجارية وقوافل الحجاج، والتي سهلت عليهم اكتشاف الصحراء الإفريقية من شمالها إلى جنوبها، ومن غربها إلى شرقه،ا بما في ذلك الصحراء الجزائرية التي تمثل الجزء الأهم من هذا الإمتداد[6]، فالجنوب الجزائري جزء من الصحراء الكبرى الإفريقية التي تمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى البحر الأحمر شرقا، ويحدها من الشمال الجبال الّأطلسية، ومن الشمال الشرقي ساحل البحر الأبيض المتوسط، أما من الناحية الجنوبية فيحدها ما يعرف ببلدان الساحل الإفريقي[7]. في حين يشكل الساحل الإفريقي المنطقة الفاصلة بين شمال إفريقيا وإفريقيا ما وراء الصحراء كامتداد إقليمي بين البحر الأحمر شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، شاملا دول السودان، النيجر، تشاد، مالي، موريتانيا، السنغال. وكثيرا ما يتم لحسابات جيو اقتصادية توسيعها لتشمل بوركينافاسو ونيجيريا، وجزر الرأس الأخضر والصحراء الجزائرية جنوبا، وبدون أدنى شك تعتبر المعبر بين إفريقيا الشمالية وإفريقيا جنوب الصحراء. وكلاهما فضاء جيو سياسي محدد بذاته ومتميز بخصائصه[8]. وتغطي الصحراء الكبرى مساحة تقدر بثمانية ملايين كلم^2 تشترك فيها موريتانيا والصحراء الغربية من الغرب، ومن الجنوب مالي والنيجر وتشاد والسودان[9].

وعليه حاول المستكشفون الأوروبيون من خلال التقارير الجغرافية تتبع منابع الأنهار الإفريقية، كالنيل والنيجر وغامبيا وغيرها، وذلك عندما عزموا التوغل في الصحراء أواخر ق 18 م وخلال ق 19 م. إذ درس الأوروبيون الطرق الصحراوية التي ذكرت في كتب الرحالة العرب وتعرفوا عليها، كما حاول البعض منهم معاينة الطرق التي كانت تربط الأقطار المغاربية الثلاث بعضها ببعض، والتي تربطها أيضا بالمناطق المجاورة في السودان أو المشرق العربي. إضافة إلى ذلك درسوا الطرق الصحراوية التي تربط بين دول المغرب العربي وبلاد السودان ودواخل إفريقيا، ومنها تلك التي ورد ذكرها في الكتابات الأوروبية وعاينها مستكشفوهم، وعلى رأسهم المستكشف البريطاني جيمس ريتشارد صون. أيضا اهتم الأوروبيون على الخصوص بتجارة المغرب العربي مع بلاد السودان، أي دول مالي والنيجر وشمال نيجيريا، من خلال معرفة أهم الأسواق والمراكز التي تتجه إليها

6_ نفسه، ص ص، 203_205.

7_ إبراهيم مياسي، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الجزائري 1830_1912، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996، ص 19.

8_ جميلة علاق، استراتيجيات التنافس الدولي في منطقة الساحل والصحراء، **مجلة العلوم الاجتماعية**، جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2، الجزائر، ع 19، 2014، ص ص 331_332.

9_ إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص 19.

تلك الطرق الصحراوية، وتحمل إليها القوافل منتجات الشمال الإفريقي ومستورداته الأوروبية، والتي يمكن جمعها في ثلاث مناطق هامة رئيسية. ولأجل هذه الرحلات تشكلت في عام 1788 بلندن الجمعية الإفريقية للقيام برحلات إلى أعماق الصحراء، وذلك لأسباب إقتصادية بعد أن فقدت بريطانيا مستعمراتها الأمريكية، لتبحث عن مناطق جديدة في العالم لتستعمرها.[10]

وإذا ما جئنا للتحدث عن العلاقة التي تربط الجزائر بدول الساحل الإفريقي نجد أن التجارة قد ساهمت بشكل مباشر في ربط الصلات والعلاقات الودية بين الممالك الإفريقية مثل طومبوكتو وجني وغاو، وسكان جنوب المغرب العربي طيلة القرون الوسطى والحديثة، لذلك استهوى النشاط التجاري الواسع والمزدهر بالصحراء الدول الأوروبية فعزمت على غزو الصحراء واستعمارها، فاهتموا بمعرفة الطرق الصحراوية وتتبع منابع الأنهار الإفريقية كالنيل والنيجر وغامبيا وغيرها كما سبق الإشارة إليه. وتكونت لهذا الغرض عدة جمعيات جغرافية وعلمية تكفلت بإرسال البعثات الاستكشافية منذ القرن 18 وتحملت نفقات هذه الرحلات. من بينها نذكر: الجمعية الإفريقية التي تأسست عام 1788.[11]

3. الاستعمار سبيل لبسط النفوذ الاقتصادي بين الصحراء الجزائرية والساحل الإفريقي:

تعتبر التجارة العابرة للصحراء الدافع الحقيقي لاحتلال فرنسا للجزائر باعتبارها جسر يمدها بباقي مستعمراتها في إفريقيا، ونستشف ذلك من خلال متغيرات الحاجة الاقتصادية لفرنسا وسياستها المنتهجة حيال مستعمراتها، وبعد ممارستها لتجارة الرقيق على سواحل المحيط الأطلسي قرابة قرنين من الزمن، وبتطور الثورة الصناعية تغيرت مطالب الإقتصاد الأوروبي من اليد العاملة إلى المواد الأولية الزراعية، وإلى مراكز لتصريف منتجاتها المصنعة. زيادة على ذلك كان لتحريم ومنع تجارة الرقيق علاقة وثيقة بالسياسة الاقتصادية الجديدة عبر البحار والصحراء الكبرى، وفي ظل المنافسة الشديدة حول التجارة الصحراوية بين بريطانيا وفرنسا، سارعت فرنسا لاحتلال الجزائر سنة 1830، وقدمت كل الوسائل العلمية، الثقافية، السياسية، العسكرية والاقتصادية، وحتى الاجتماعية في سبيل بلوغ هدفها المنشود وهو تحقيق حلمها التجاري بين سواحل البحر المتوسط والمحيط الأطلسي عبر الصحراء الجزائرية، فشكلت لجنة الاستكشاف العلمي

10__ طاهر موساوي، المرجع السابق، ص ص، 203__205.

11__ إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص ص 40__41.

بالجزائر عام 1837 من أجل القيام بدراسة التجارة الصحراوية ومنافسة جارتها بريطانيا في التجارة العابرة للصحراء.[12]

كانت الحركة التجارية للجزائر مع وسط الصحراء والسودان الشرقي مزدهرة كثيرا في العصور الحديثة، وحتى مع مدن أخرى عديدة منها: تلمسان وورقلة -أو وارجيلان كما نجدها في المصادر القديمة- التي كانت على اتصال وثيق مع وسط إفريقيا.[13] واستنادا لهذه المعطيات المهمة بالنسبة لفرنسا اقترح بول سولييه في تقريره نموذجا للسيطرة على تجارة الصحراء فدعا الحكومة الفرنسية إلى:

_ إنشاء قنصليات فرنسية في الصحراء لاستكشاف بلدان مجهولة من جهة وللسيطرة على طرق التجارة وتوفير فرص هائلة للحصول على تجارة ضخمة من جهة أخرى.

_ جلب التجارة الصحراوية التي تمر من مرزق إلى مدينة قسنطينة.

_ توجيه السود نحو الهجرة إلى الجزائر.[14]

ونتيجة لذلك عرفت شعوب الساحل والصحراء الإفريقية ظاهرة الاستعمار، شانها شأن باقي الدوائر الإقليمية في غرب إفريقيا وشمال إفريقيا، وحتى القرن الإفريقي لم يسلم من حسابات الدول الاستعمارية آنذاك. وفي الواقع بلغ التنافس أشده بين قوى فرنسا وبريطانيا وهولندا والبرتغال من القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر، بهدف فرض الرقابة على أهم طرق الموارد وموارد الصحراء، وبلا تحفظ يعتبر مؤتمر برلين المنعقد سنة 1884 أصدق تعبير عن تلك المنافسة للحصول على مناطق النفوذ، واتجاها نحو التقييم والأقلمة في إفريقيا من خلال ثلاث مسارات:

1_ برنامج منظمة الصحراء عام 1912 حرره شارل دوفوكول يجد مبرره في تحييد المنطقة من تأثير الحركة السنوسية وبناء تنظيم عسكري وإداري يكون رقيبا على الوجود التارقي في الصحراء الوسطى.

12_ سميرة دعاشي، الاستثمار الفرنسي للجزائريين في مهمة اختراق الصحراء الجزائرية خلال القرن 19م، **مجلة تاريخ العلوم**، جامعة الجلفة، الجزائر، ع 11، 2018، ص 160.

13_ Paul Soleillet, Op.Cit, p 12.

14_ Ibid, p. p 16_17.

2_ الحرص على خلق صحراء فرنسية[15] تمتد شمالا من سانت لويس في السنغال إلى الجنوب الشرقي نحو تبستي في تشاد، حيث تضم المنطقة أقاليم كلها مستعمرات فرنسية امتدادا جغرافيا لما يفوق 12 مرة مساحة الميتروبول فرنسا.

3_ انتهاء بالمنظمة المشتركة للمناطق الصحراوية، ومهما اختلفت وجهة نظر هذه المسارات إلا أنها كانت السباقة في فهم قوة الصحراء وقدرتها على امتصاص التفاعلات الجيو سياسية والإستراتيجية.[16]

وبهذا كان لفرنسا الحظ الأوفر في الجزائر إذ احتلت الجزائر في 05 جويلية من عام 1830 وكان ذلك إيذانا ببداية الصراع العثماني الفرنسي حول شمال إفريقيا والصحراء، وقد استمر حتى عام 1918[17]. كان احتلال الجزائر بمثابة التأسيس للإمبراطورية الفرنسية الإفريقية، هذا ما أثر على العلاقات العثمانية الفرنسية حتى عام 1919، وكان الفرنسيون يدركون أنه لتوطيد الأمن في تلك البلاد يجب التوسع في الحدود الشرقية والغربية والجنوبية، ومتابعة تحرك الدولة العثمانية التي كانت ترفض هذا الاحتلال. ومع تحرك الدول الإسلامية ومنع تقرب أي دولة قوية من تلك الحدود، ولذلك نرى فرنسا تتطلع للمزيد من التوسع في شمال إفريقيا، فاستولت على تونس والمغرب(من خلال معاهدتي الحماية 1881 و1912)، وتوسعت في الصحراء فيما بعد. وهناك سبب آخر لاهتمام فرنسا بالصحراء هو أن الحدود الجنوبية للجزائر كانت ملجأ للقبائل التي لم تعترف بالسلطة الفرنسية. ولذلك كان لابد لها من الاستيلاء عليها. وهذا لم يتحقق إلا تدريجيان ووفق ملائمة الظروف الدولية، وتمسك الحكومات الفرنسية ومعارضة الدول المجاورة للجزائر، وأهم سبب لاهتمام فرنسا كذلك بالصحراء خلال المرحلة الواقعة بين عام 1852 وعام 1872 هو التحكم في تجارة الصحراء والسودان، ومراقبة الطرق التجارية، لأن تجارة الصحراء كانت على شكلين:

_ تجارة المواد الأساسية فمعيشة الصحراويين كانت بسيطة وكانت قدراتهم المادية ضئيلة لذلك لا مجال لذكر الأولى.

15_ توسعت فرنسا من الشمال الغربي باتجاه غرب إفريقيا. ينظر: حسن سيد سليمان، ظاهرة الاستعمار في إفريقيا والعالم العربي، **مجلة دراسات إفريقية**، المركز الإسلامي الإفريقي، الخرطوم(السودان)، ع 2، 1986، ص 60.

16_ جميلة علاق، المرجع السابق، ص ص 331_332.

17_ عبد الرحمان تشايجي، الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى، تر: علي أعزازي، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي، (د. ب. ن)، 1982، ص 47.

_ أما الثانية فلها الأهمية الكبرى حيث أن السودان كانت تستورد السلاح والذخائر، والورق والمرايا والمصنوعات المعدنية، والمنسوجات القطنية والملابس والشاي والسكر، والعطر ورؤوس السياط والخرز. وكانت تصدر العاج والشمع العسلي، والتبر(فتات الذهب أو الفضة قبل أن يتم صياغته) وريش النعام والأسرى، كان التعامل التجاري يتم عن طريق المقايضة مثلا من المواد الرائجة في عملية التبادل نجد الملح والبلح والأسرى.[18] ومن بين منتجات الصحراء الأصلية التي كانت تستخدم في المبادلات التجارية بين شمال إفريقيا والصحراء والسودان ما يلي: المواشي، الجلود الخام والمدبوغة، القطن، الحبوب والخضر، العاج والذهب، هناك كذلك السماق والحناء، الورود والقرفة، الصمغ والفستق، كربونات الصودا والملح الصخري وجلود الماعز، وبقايا النعام.[19] وإذا كانت عملية مد النفوذ الفرنسي إلى داخل القارة قد توقفت لفترة طويلة إلا أنها نشطت في العقد الأخير من القرن 19م حين هزمت فرنسا في الحرب الفرنسية الألمانية في سنة 1870، فأرادت أن تعوض مركزها المنهار في القارة وبالتالي أعلنت فرنسا حمايتها على هذه الأجزاء الإفريقية.[20]

4. دور الطرق التجارية في عملية التبادل الاقتصادي بين الجزائر ودول الساحل الإفريقي:

لم تغفل المصادر الفرنسية ولا حتى البريطانية عن ذكر أهم الطرق التجارية التي كانت ممرا للقوافل التجارية من الصحراء الجزائرية إلى بلدان الساحل الإفريقي، فكلا المصدرين تناولا هذا الجانب فمثلا يتحدث بول سولييه عن طرق التجارة الصحراوية فيقول أن العلاقات بين شمال إفريقيا وإفريقيا الوسطى تنفذ حصرا عن طريق طرق المغرب وطرابلس ويتحدث عن القوافل التجارية وأهم ممراتها فنجد:

_ طريق المغرب وطرابلس: تتشكل القوافل في طرابلس تمر إلى مرزق عاصمة فزان هاته الأخيرة كانت على صلة بأوروبا عن طريق طرابلس وبنغازي أو مصر؛ تمر ببحيرة تشاد عن طريق بليما إلى أغاديس، عن طريق غات إلى طومبوكتو، عن طريق عين صالح.

18_ عبد الرحمان تشايجي، المرجع السابق، ص ص 53_54.

19_ Paul Soleillet, Op.Cit, pp35_43.

20_ زاهر رياض، إستعمار إفريقية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965، ص 158.

_ غدامس كانت لها أيضا صلة بأوروبا عن طريق طرابلس، تتشكل قوافلها وتمر عن طريق غات إلى أغاديس، تتجه نحو بحيرة تشاد عن طريق بليما، وتمر خاصة إلى عين صالح ومنه إلى أغاديس إلى طومبوكتو.

_ في المغرب: تتشكل في كل سنة قوافل كبيرة تنطلق قبل نهاية شهر سبتمبر من منطقة عكا بالمغرب، ثم تندوف إلى طومبوكتو، تنظم هذه القوافل في تافيلالت، تتاجر مدنها مع أوروبا عن طريق موقادور(فرنسا)، كانت على صلة كذلك مع جيلبارتار(بريطانيا)، ومن تافيلالت يذهبون أحيانا مباشرة إلى طومبوكتو، وأحيانا أخرى عين صالح إلى أغاديس وكانو.

_ عين صالح إلى تيميمون نحو كل إقليم توات:حيث توجد بها تجارة قوية وراسخة وتتشكل فيها كذلك القوافل التي تذهب إلى موقادور، طومبوكتو، أغاديس، كانو، غات، غدامس[21]. ويرى بول سوليبه أنه لا الجزائر ولا حتى تونس تستفيد من هذه الحركة التجارية، فالموقع الجغرافي لتونس وحده يفسر هذه الحقيقة، فهي من بين موانئ شمال إفريقيا أبعد نقطة عن النقطة المركزية والتي بلا شك نعني بها عين صالح، إضافة إلى ذلك تبعد تونس على مسافة أكبر بكثير من مركز التجارة الشرقي للصحراء.[22] ومن حسن الحظ أن الجزائر ليست كذلك، بل على العكس نجد الطرق التي تقود بشكل طبيعي من الشمال إلى وسط أفريقيا والتي كانت هي الأكثر إتباعا منذ العصور الوسطى نذكر:

_ من تلمسان إلى عين صالح عن طريق واد القير.

_ من جيريفيل إلى تيميمون وإلى توات.

_ من قسنطينة والجزائر تنتهي إلى ورقلة.

_ من قسنطينة إلى غدامس عن طريق توقرت وواد سوف.

_ من الأغواط إلى غات عن طريق ورقلة والبيض.

21_ Paul Soleillet, Op.Cit, p 5.
22_Ibid, p.p 5_6.

_ من الجزائر إلى النيجر هناك طريق مباشر يمر عن طريق الاغواط، مزاب، القليعة، وتنتهي إلى طومبوكتو، هذه الأخيرة هي الأكثر أهمية ليس فقط للجزائر بل أيضا لفرنسا.[23]

في حين أن جيمس ريتشارد صون في حديثه عن تشكل القوافل وعبورها للصحراء، يؤكد أن هناك العديد من الطرق التي كل منها ترتبط بواحة أو مدينة بالصحراء الكبرى، والطرق التي تم أتباعها منذ العصور القديمة طرق يسيطر عليها السكان الأصليون، تساعدهم على التجارة والتواصل. تمر من خلال هذه الطرق بضائع السودان وطومبوكتو، وفي فيما يتعلق بالأمن في الطرق فيؤكد ريتشارد أنه كلما اختار الطرق التي يتوفر عليها الماء والطرق المباشرة، كلما كان عرضة لهجمات قطاع الطرق، في حين أن الطرق الأقل سفرا والملتوية تكون أكثر أمنا. ويؤكد أن سلامة القوافل التجارية تعتمد في المقام الأول على الأشخاص المشكلين لهذه القوافل. والمعلومات التي أشار إليها في كتابه يؤكد أنه جمعها بعناية من أفواه التجار الأكثر خبرة ومعرفة من غدامس(منطقة في ليبيا) من راكبي الجمال وسكان الجبال والتوارق.[24]

ولعله من أهم الطرق الرئيسية التي ذكرها جيمس ريتشارد صون في كتابه نذكر:

_ طريق طومبوكتو: مغادرة غدامس ونقصد ليبيا والتوجه من الجنوب الغربي إلى إقليم توات(أدرار)، ويتحدث عن هذه الطريق وأهم محطاتها ومصادر المياه الموجودة بها وحتى أنه حدد الايام التي يستغرقها للوصول من طومبوكتو إلى توات التي قال أنها تستمر أحيانا 21 يوم إلى 25 يوم وذلك حسب استراحته.

_ طريق السودان: التوجه من غدامس (ليبيا) في خط أو طريق مستقيم لـ غات، يضم طريقين رئيسيين من غدامس إلى غات، الطريق الغربي وهو الاقصر يكون خلال 18 يوم والطريق الشرقي الذي تدوم الرحلة فيه 36 يوم وهو الأطول.

_ طريق غات إلى كانو (التابعة لنيجيريا) في خط مستقيم إلى الجنوب.

_ من بين الطرق التي أشار إليها كذلك الطرق التي تمر من خلالها قوافل الحجاج من غات إلى توات إلى مكة. وهو طريق برنو.[25] ذكر الكاتب كذلك طريقا آخر وهو طريق

23_ Ibid, p.p 6_7.
24_ James Richard Son, Op.Cit,pp5_6
25_ إمبراطورية برنو عبارة عن دولة إفريقية في نيجيريا من 1380 إلى 1893 وقد كانت استمرارا لإمبراطورية كانم العظمى التي تأسست قبل عدة قرون... لمزيد من التفاصيل. ينظر:

فاس(المغرب)، اتجاهه يقول الكاتب من طريق غدامس في اتجاه واحد من الجنوب الشرقي لواحات توات، ثم الشمال الشرقي إلى فاس، ويشير لمسافة الطريق بـ:

_ من غدامس إلى عين صالح تقدر المسافة 20 يوم.

_ من عين صالح إلى تيميمون تقدر بـ 7 أيام.

_ أما من تيميمون إلى تافيلالت مسيرة حوالي 12 يوم.

_ في حين أنه من تافيلالت إلى فاس تقدر بـ 20 يوم، مجموعها من 59 أو 60 يوم.[26]

كانت هذه أهم الطرق والممرات التي تحدث عنها الكاتبان في دراستهما، مؤكدان على أهمية هذه الطرق في صيرورة عملية نقل وتبادل السلع التجارية، ومرور القوافل التجارية. ورغم صعوبة هذه الطرق وتحمل التجار لمشقات السفر لأيام وأشهر إلا أنها كانت الأمل الوحيد لدى ساكني تلك المناطق الشبه معزولة للتواصل من جهة، ولإحياء التجارة من جهة أخرى باعتبارها شرايين الحياة بالنسبة إليهم.

الخاتمة: استنتادا لما تم التطرق إليه في هذه الدراسة المتعلقة بالتبادل الاقتصادي بين الجزائر أو الصحراء الجزائرية ودول الساحل الإفريقي خلال القرن 19م من خلال النموذجين المذكورين آنفا تم التوصل إلى ما يلي:

_ أن الاهتمام الأوروبي بشمال إفريقيا ودول الساحل الإفريقي لم يأتي من العدم، بل ساهمت رحلات الأوروبيين المستكشفين منذ البدايات الأولى للفترة الحديثة في جلب اهتمامهم في اختراق مناطق مجهولة لاكتساب المج والشهرة من جهة، ولإعلام حكوماتهم بما تحتويه هاته البلدان من ثروة من شأنها أن تطور من اقتصادها من جهة ثانية.

Vincent hiribarren, Kanem_bornou empire, the encyclopédie of empire, éd Jon M. Mackenzie, 2016; B. M. Barkindo, le Kanem_ Bornou: ses relations avec la Méditerranée le Baguirmi et les autres Etats du bassin du Tchad, Histoire générale de l'Afrique, chapitre 17, ed UNESCO, Paris, 1980.

26_ James Richard Son, Op.Cit, pp 11_23.

_ أن كلا المصدرين قد أولى عناية خاصة بدراسة طوبوغرافية لإفريقيا عامة والجزائر خاصة، فقد ركزا كلاهما على أهمية المنطقة استراتيجيا وأهميتها الاقتصادية للرفع من تجارة فرنسا مع مستعمراتها الإفريقية ككل سواء في الشمال أو في الساحل الإفريقي.

_ يؤكد بول سولييه الفرنسي على أن مستقبل فرنسا في إفريقيا الوسطى، ويركز على صحراء الجزائر وامتدادها إلى إفريقيا، على أنها السبيل للتوسع واستعمار إفريقيا والاستحواذ على صادرتها وارداتها وطرقها التجارية وتجارتها بشكل عام.

_ أما جيمس ريشارد صون البريطاني نراه يركز في رحلته على ذكر كل التفاصيل الصغيرة والكبيرة عن الطرق التجارية وأهم المدن التي تنطلق وتنفذ إليها القوافل التجارية، وهذا لتوضيح عملية سير المبادلات التجارية والتركيز على كل تفصيل صغير كان أو كبير.

قائمة المصادر والمراجع:

1_ دعاشي سميرة، الاستثمار الفرنسي للجزائريين في مهمة اختراق الصحراء الجزائرية خلال القرن 19م، **مجلة تاريخ العلوم**، جامعة الجلفة، الجزائر، ع 11، ، 2018، الصفحة من ص 160 إلى ص 174.

2_ موساوي طاهر، استكشاف الصحراء الإفريقية والجزائرية قبل القرن 19 م، **مجلة دراسات إنسانية وإجتماعية**، جامعة وهران 1، الجزائر، ع 5، 2015، الصفحة من ص 197 إلى ص 208.

3_ مياسي ابراهيم، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الجزائري 1830_1912، الجزائر، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1996.

4_ مرجاني عبد القادر، الصحراء الجزائرية من خلال الكتابات الأوروبية خلال القرن 19م بول صولييه أنموذجا"، **مجلة الدراسات التاريخية**،كلية العلوم الإنسانية جامعة الجزائر2، الجزائر، ع 22، 2018، الصفحة من ص 146 إلى ص 167.

5_ سليمان حسن سيد، ظاهرة الاستعمار في إفريقيا والعالم العربي، **مجلة دراسات إفريقية**، المركز الإسلامي الإفريقي، الخرطوم(السودان)، ع 2، 1986، الصفحة من ص 55 إلى ص 81.

6_ علاق جميلة، استراتيجيات التنافس الدولي في منطقة الساحل والصحراء، **مجلة العلوم الاجتماعية**، جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2، الجزائر، ع 19، 2014، الصفحة من ص 330 إلى ص 344.

7_ رياض زاهر، إستعمار إفريقية، القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، 1965.

8_ تشايجي عبد الرحمان، الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى، تر: علي إعزازي،(د. م. ن)، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الايطالي للنشر، 1982.

9_ Barkindo, B. M: le Kanem_ Bornou: ses relations avec la Méditerranée, le Baguirmi et les autres Etats du bassin du Tchad, Histoire générale de l'Afrique, chapitre 17, ed UNESCO, Paris, 1980.

10_ Hiribarren Vincent, Kanem_Bornou Empire, the Encylopedia of Empire, éd Jon M. Mackenzie, 2016.

11_ Richard son James. M, routes du Sahara : l'itinéraire dans l'intérieur du grand Désert d'Afrique ; traduit par : M. Albert Montémont, imprimerie de L. Martinet, paris, 1850.

12_ Soleillet Paul, exploration du Sahara : avenir de la France en Afrique, Challamel ainé libraire éditeur, Paris, 1876.